د . ابراهيم السامرائي

العربية والمصطلح العلمي

العربية احدى اللغات الحية . وهذا يقتضينا ان نفهم فنسلم بانها لغة متطورة تخضع لما تخضع له اللغات الحية عامة . وهي احدى لغات سامية درست معالمها وامحت اصولها فلم تبق الا هذه اللغة القويمة . ولا بد من الاستطراد قليلا فاقول انها الوحيدة بين المجموعة السامية التي ثبتت على مر العصور . سيقول قائل ان العبرانية لغة قائمة وانا اقول ان هذه العبرانية الجديدة ليست الا مادة جديدة اعيد بناؤها بصورة جبرية لتكون لغة مجاميع بشرية هي ليست لغتهم . ومن اجل هذا فان علم اللغة الحديث يرفض أن تكون هذه الاداة اللغة الطبيعية لهذه الاشتات المتنافرة .

ولا بد لي ان ادع هذا الاستطراد أوجز فاعود الى العربية لاقرر انها اللغة الحية وانها ثبتت ازاء العصور ، وانها كانت خير وسيلة للاعراب عن حضارات مزدهرة . وآية ذلك ان العلم القديم بفكره وفلسفته وسائر الوانه لم يكن له من وسيلة غير هذه العربية السمحة، ولا أراني منساقا انسياقا عاطفيا حين اقرر انها كانت سيدة لغات العالم القديم خلال قرون متلاحقة ابتداء من القرن السابع الميلادي ، ومن اجل هذا فقد كتب المفكرون من غير العرب ونسوا لغاتهم وقرروا ان لا سبيل الى الاعراب عن أفكار المسلمين الا بهذه العربية . ومن هنا كنا قد ورثنا هذه اللغة القديمة وكان لها من اسباب الحياة ما اعان على استمرارها بهيئة معلومة . ذلك اننا معاشر العرب قد ورثنا تراثا ضخما هو مادة هذه اللغة . ولولا هذا التراث وعلى رأسه كتاب الله – جل وعلا – لآل امر هذه اللغة الى لغات عدة كما هي الحال مثلا في اللغات الرومانية التي تحولت الى الرومانية والايطالية والفرنسية والاسبانية والبرتغالية .

لم يكن شيء من هذا في العربية ، وذلك ان العربية ما زالت لغة امة باسرها في بقاع فسيحة من العالم هي البلاد العربية . ولو عمل اهل العربية على رعاية هذه اللغة لكان لهم ان يوسعوا من هذه الرقعة فتعم لغتهم في بقاع افريقية وغير افريقية ممن فطروا على الاسلام دينا وآمنوا به فكرا وسلوكا . ومع كل هذا اننا نواجه مشكلات في هذه العربية بسبب اننا لا نملكها كما كان اسلافنا يتملكون منها . واننا نتعلمها نعلما ونواجه في تعلمها الصعاب ، واننا قد نعزف عنها شاعرين ام غير شاعرين انسياقا مع مفهوم خاطىء ضال هو ان هذه اللغة قاصرة عن مواجهة الفكر الحديث . ثم اننا مقصرون في تعلمها وهذا التقصير يعني ان وسائل تعلمها متخلفة عن العلم الصحيح في وسائل التربية الحديثة . ثم ان مادتها لا بد ان تكون شيئا آخر ليس ما درج عليه المعنيون بتدريبها .

ومن هنا كان علي ان اقول : اننا لا بد ان نسلم ان العربية لغة متطورة وان عربية عصرنا الحاضر غير العربية القديمة . ولعلي استطيع ان اقول ان عربية هذه الايام غيرها منذ عشرين أو ثلاثين سنة . ثم اننا لا نملك هذه العربية بسبب ان سلوكنا اللغوي بعيد عنها ، فاننا نباشر طرائق في الكلام والخطاب مستمدة من مواد تتصل بما يسمى اللهجات الحديثة وهذه اللهجات الحديثة مختلفة في مستواها بين جهة واخرى، ثم هي مختلفة في مستوياتها ومادتها بين الطبقات المختلفة في البيئة الواحدة .

كل هذا يعني ان علينا ان نتدبر امر اللغة الفصيحة ايمانا منا بانها الوسيلة الوحيدة التي تصلح لحياة جديدة ذات حضارة جديدة هي الحضارة العالمية المعاصرة . ثم علينا ان نقرر ان هذه العربية الفصيحة قادرة على ان تكون احدى اللغات العالمية للاعراب عن الحضارة الحديثة . قلت اننا لا نملك هذه اللغة فلا نستطيع ان نعبر بها تعبيرا يبلغ القصد كما لا نستطيع ان نؤدي بها كتابة ما يدور في افكارنا . ومن اجل هذا فلا بد من التفكير في المشكلة اللغوية .

أقول ان العربية ليست بدعا بين اللغات وانها ليست عربيه معقده كما يدعي جمهرة من المثقفين العرب . وانها تملك من وسائل الحياة ما يقرر انها لغة عالية المستوى كما يؤيد ذلك علم اللغة الحديث .

اخلص من كل هذا الى اننا نتعلمها خطأ ومادة ومنهجا . ومن هنا تكون المشكلات على ضربين : الاول يتصل بالمادة والثاني يتصل بالمنهج .

الضرب الاول

لم يرد المختصون من علماء العربية والمعنيين بتعليمها من الاساتذة والمدرسين والمعلمين ان يقرروا ان العربية لغة حديثة وانها بسبب من ذلك ذات مادة حديثة ينبغي ان تعلم . وهذه المادة الحديثة تختلف عن المادة القديمة اختلافا بينا . وينبني على هذا ان لا بد لنا من ادب حديث وفكر حديث ونحو حديث واسلوب حديث ومعجم حديث . هذا لا يعني اننا نقتصر على هذه الالوان الحديثة وذلك ان النهج التاريخي يقتضينا ان نلم بالاصول فنسلم ان المادة اللغوية تخضع للتطور التاريخي . وان النظر الى اللغات الحديثة المتطورة يهدينا الى ان مادة تلك اللغات التي تقدم للدارسين هي شيء حديث متصل من ناحية المسيرة التاريخية بالمواد القديمة .

ان هذا يفرض علينا ان نقرر ان النحو العربي مثلا لا بد ان يكون نحوا جديدا ، فهل نملك شيئا من ذلك ؟ الجواب : لا ، بسبب من ان

العاملين في عملية التعليم التربويه لم يعانوا التفكير في هذه المشكلة الخطيرة .

اننا ورثنا النحو القديم وكان قد سلخ من عمره اثني عشر قرنا . وكان السلف الاوائل قد وضعوا البداية النحوية لتكون مادة تدفع غائلة اللحن الذي تفشى في لغه المعربين من العرب بسبب مخالطتهم للاعاجم المتعربين الذين انضموا في المجتمع الاسلامي . ومن غير شك ان نحوا وضع ليفي بهذا الغرض لا بد أن يكون مادة تعليمية موضوعية كما نقول في عصرنا . غير انه ما لبث ان كان احد فروع المعرفة ابتداء من اوائل القرن الثالث الهجري . وهذا يعني انه صار مادة للدرس والاجتهاد وصار له اصحابه ممن عرفوا بالنحاة . ثم كان من اوائك ان صاروا طبقات على ممر العصور ثم كان ان تحول من مواد يسيرة يراد من تعليمها عصمة اللسان من غائلة اللحن الى مواد جديدة لا يراد لها ان تكون ضوابط يسيرة لغرض تعليمي معروف . ولقد ادى هذا الى ان اصبح النحو مادة معقدة عسيرة المنال تبعد عن تناول المشكلة اللغوية ، ذلك انها اقتبست من المنطق الارسطي واساليبه مما احال المادة اللغوية الى شيء اخر . لقد تحول النحو الى الخط الذي يستند على العلة والمعلول . ومن هنا كان النحو علم الاعراب ، والى هذا اشار الزمخشري في مقدمة كتابه « المفصل » الى ان علم النحو هو الاعراب وادى هذا الى ان صار النحو العربي يبحث في حركه اخر الكلمة : ولم يكتف النحاة بهذا بل بحثوا في علة الاعراب ، ومن هنا قرروا ان الاسم معرب لانه كيت وكيت وان كل ما اشبهه كان معربا . ومن اجل هذا شابه الفعل المستقبل الاسم فكان مضارعا له .

رب سائل يسأل وما ضير هذه النظرة على الحقيقة اللغويه ، والجواب عن هذا ان شيئا كثيرا يتصل بمادة الفعل قد اهمل . الا ترى انهم جعلوا حد الفعل الحدث المقرن بزمن ! ولكننا لا نعرف وجه الزمن في باب الفعل في اي من كتب النحو القديم . ثم لم يكتفوا بالعلة الاولى حتى توصلوا الى ما اسموه بالعلل الثواني والثوالث . ثم كانهم لمحوا ان الكلمة العربية معرفة اصالة ولذلك اهتموا بالاعراب فنظروا اليه على انه اثر يجلبه العامل ولا بد من الوقوف عند هذه النظرة لنتبين اثر المنطق فيها . اقول : كان الاعراب النتيجة التي ادى اليها العامل وهو السبب ، فاذا لم يروا هذا الاثر قدروه فكان الاعراب التقديري وهو شيء متخيل متوهم . ثم ان كانت الكلمة مما لا يقبل الحركة في الاخر سميت مبنية ، وهي لا بد ان تخضع لنظام جمهرة الكلمات في العربية وهي الكلمات المعربة فاعربت بنظام خاص سمي الاعراب المحلي وبذلك لا تفلت كلمة من الكلام في العربية من هذا الحكم .

الضرب الثاني

اقول : ان المتتبع لمواد النحو في كتبه القديمة ، واقصد بالكتب القديمة تلك التي درستها اجيالنا السابقة في باب « علوم الجادة » وهي التي تدخل في آلات المتعلمين حتى جيلنا السابق ، ان المتتبع لهذه الكتب يجد مواد وطرائق بعيدة كل البعد عن النهج السليم في تحرير النحو في عصرنا . ولا ارى حاجة لضرب الامثلة على ذلك .

ان هذه الكتب القديمة وجلها شروح للالفية وتعليق على شواهدها تختلف عن نظرات النحويين المتقدمين من طبقات النحاة الاوائل . فاين هذه من آراء الخليل بن احمد وسيبويه في « الكتاب » ؟

ومما حمل الضيم على الدراسات النحوية في عصرنا انها اتخذت الالفية وشروحها الكتب الجامعية التي يدرسها الطلاب فضاقوا بها ذرعا والشكوى مريرة .

ومن نتائج هذه الدراسة ان الكتب المدرسية في المدارس الثانوية والاعدادية وحتى الابتدائية اتبعت شيئا مما جاء في تلك الكتب التي يقرأها الدارسون في الدراسات العليا .

اريد ان اخلص من هذه المقدمة التاريخية الى ان العربية في اوائل تطورها وذلك في مطلع العصور الاسلامية قد حفلت بالثروة العلمية. وهذه الثروة العلمية كان لها مصطلح يكاد يكون مكتملا ناضجا. لقد توفرت في علوم العربية مادة اصطلاحية ضخمة ودقيقة .

لقد كان للنحاة الاوائل مصطلحهم الدقيق الذي عبر عن نضج كبير وادراك تام لسمو هذه اللغة بحيث لم تستطع القرون المتلاحقة ان تضيف الى المعجم النحوي شيئا . ومثل هذا ينطبق على سائر علوم اللغه العربية فهناك مصطلح للبلاغة في علومها المختلفة ، وهناك مصطلح لغوي يشتمل على الالفاظ اللغوية الصرفية والعروضية . ثم بدأ ينشوء العلوم الاسلامية في ازدهار الحضارة الاسلامية ابتداء بعصر النبوة ، مصطلح اسلامي يتناول مختلف العلوم الاسلامية ، فلدينا مصطلح في الحديث بلغ الذروة في التدقيق والضبط ، ولدينا مصطلح لعلوم القرآن .

ثم كتب للعلوم الاسلامية ان تتسع دائرتها باتصالها بالجانب الفلسفي فنشأ علم الكلام وهو نواة الفلسفة الاسلامية . ومن هنا كانت استجابه العربية للعلوم الجديدة استجابة كاملة . فكان المصطلح الفلسفي الذي تناول المادة الفلسفيه في الوانها المختلفة .

ومن هنا انطلق اللغويون الاقدمون واصحاب المعارف المختلفة لتنفيذ هذه الالوان الاصطلاحيه فظهرت المصنفات التي تناولت الالفاظ الاسلامية وهي كثيرة ، وما زال في المكتبة العربية شيء من ذلك . وما كتاب التعريفات للشريف الجرجاني الا من هذا الباب .

اقول : ان العربية الفصيحة استطاعت ان تكون لغة العلم خلال قرون عدة وقد كتب بها المخصوص من عرب وغير عرب مسلمين وغير مسلمين ، ولقد وجد غير العرب ومن غير المسلمين انها امثل لغة للتعبير عن الفكر الفلسفي وان فيها مكتبة لتمد الباحث المتخصص بطائفة من الالفاظ الاصطلاحية . ومن اجل ذلك نقل اليها التراجمة النصارى فلسفة الاغريق وعلومهم ، ذلك انهم وجدوا ان سريانيتهم لا تؤدي هذه الاغراض الجديدة .

ولكن المجتمع العربي بعد ان دهته الدواهي وتفرق ايما تفرق واستولى عليه الاعاجم ، انقطع عن حضارته فاصاب لغته الهرم واصبحت شيئا بعيدا لا يتهيأ له ان يناله بيسر فهم الجهل وانقطع معين الحضارة الزاخر وساد ما سمي في التاريخ حقبة « الفترة المظلمة » .

اقول هي « المظلمة » بالقياس الى الجماهير الواسعة بحيث صارت العربية اهتمام الطبقة التي تسعى اليها متلقية متعلمة .

ثم جاء العصر الحديث وجاءت النهضة الغربية بحضارتها ومدنيتها ووجد العرب انفسهم متخلفين عنها . ذلك ان مصادر العلم الحديث مصادر اجنبية ، وانهم لم يحذقوا لغتهم بل فقدوها ابان قرون عدة خلال الحكم العثماني فكيف يتاح لهم ان ينهضوا وان يواكبوا الحضارة الجديدة ؟

لا بد لهم من اداة لغوية تتعرب بها العلوم الحديثة . ومن هنا نشأت مشكلة المصطلح الفني le Terme Technique لقد نهض المختصون من الافراد والهيئات بهذا الواجب الثقيل ونظروا في لغتهم نظر العالم الحاذق فوجدوا ان في العربية كل ما يعين على حل هذه المشكلة .

لقد اتبع الاقدمون طريقين لتوفير المصطلح الاول : انهم فتشوا في العربية عن اللفظ السهل الذي لا ينصرف الى معان كثيرة فتواضعوا عليه مقابلا للكلمة الاعجمية الاصطلاحية وبذلك انتقلت الكلمة العربية

الى شيء من « مصطلح » .

والثاني : انهم لجأوا الى التعريب وقصدوا به ان تؤخذ الكلمة الاعجمية باصواتها او بتغيير شيء من ذلك ووضعها في العربيه بحيث لا تنأى كثيرا عن الابنية المعروفه في اللغة العربية .

وبهذه الطريقة الثانية نشأت الفلسفة والموسيقى والهيدرولي والجغرافيا ثم سار على هذه السنة المتأخرون فقالوا الفلسفة والديمقراطية والارستقراطية ومثل هذا كثير .

وقد جرى نفر من المحدثين على هذه الطريقة فحلا لهم آن يقولوا « التلفزة » للتلفزيون .

ان مواد العلم الحديث كثيرة ، ومن اجل ذلك فلا بد ان تتهيأ مادة كبيرة في المصطلحات لتسد مسدها . وقد بذل المعنيون في هذا السبيل جهودا كبيرة في هذا الباب .

ولولا ان هذه الجهود مفتقرة الى التوحيد فيما بينها لامكن ان تحل هذه المشكلة . ومن هنا فلا بد من توحيد هذه الجهود المختلفة .

وما اراني الا مكررا الكلام على غنى العربية ووسائلها الخاصة في توفير المصطلح فلقد كثر القول في هذا وكثرت الدراسات فاشير مثلا الى قدرة العربية الاشتقاقية وان لها من ابنيتها ما يعين على توفير مسائل كثيرة كالمصدر الصناعي الذي صنعت به النسبية والمادية والكهربائية والحيوية والديموقراطية والوجودية ومثل هذا كثير ، وان لها من ابنية اسماء الالة وسائر المشتقات ما هو كفيل بتوفير مادة اصطلاحية كبيرة .

ولقد دل الاستقراء على ان في العربية ابنية لم يلتفت اليها الصرفيون ولم يقيدوها في مصنفاتهم وهي تصلح ان تؤدي اغراضا علمية .

من ذلك مادة « فعال » بكسر الفاء وهي من ابنية اسماء الالة في اللغة القديمة وهي اسهل واولى من المشتقات القياسية .

وقد ورد مما جاء على هذه الصيغة مئات من الالفاظ التي تستعمل ادوات والات ومن ذلك :

العيار والصمام والعفاص والخياط والرباط والوكاء والنقاب والقناع واللجام ومثل هذا كثير لا ياتي عليه آلا الاستقراء الوافي في امهات كتب العربية .

ومثل هذه الابنية التي لم يفطن اليها المحدثون ما جاء على «فعلة» بضم العين مرادا به اسم المفعول القديم فبل ان تكون له قاعدة «مفعول» ومنه اللمزة اي الملمز واللقمة اي الملقوم والضحكة اي المضحوك منه وكان اهل الاقتصاد مصيبين كل الاصابة حين قالوا « العملة » بالمعنى المعروف .

ونستطيع ان نوصي توصيات عامة بشان المصطلح الفني وهي :

١) ان يكون المصطلح من الالفاظ التي لا تنصرف معانيها الى مدلولات كثيرة .

٢) ان يكون المصطلح من الالفاظ السهلة اليسيرة في عدة بنائها من حيث الاصوات .

٣) ان تكون بسيطة لا مركبة قدر الامكان وبذلك يستغني ما امكن عن الالفاظ المنحوتة والالفاظ المضافة .

٤) ان يكون المصطلح من الالفاظ المعروفة فلا يلجأ الى الغريب الا عند الضرورة او في حالة ان اللفظ الغريب كان مصطلحا قديما معروفا .

٥) ان يكون المصطلح قائما على المادة المرادة فلا يشترك فيه موضوع اخر .

٦) يتجنب المعرب عند اختيار المصطلح ويفضل عليه الكلام العربي .

اخلص الى ان مشكلة المصطلح مشكلة خطيرة ينبغي ان ننظر اليها نظرا جادا وذلك لاننا في حقبة حرجة نقف فيها من الحضارة الحديثة موقفا خاصا يفرض علينا ان نكون واعين اشد الوعي .

دار الآداب تقدم

ثقافتنا

في مفترق الطرق

بقلم

الدكتور لويس عوض

دراسات وابحاث جريئة تتناول الوضع الثقافي العربي والمشكلات التي يعانيها

٦٥٠ ق . ل

صدر حديثا